أولويات الدعوة في منهج الأنبياء عليهم السلام

د.زيد بن عبد الكريم الزيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

أما بعد :

فبين يدي هذا البحث عن: (أولويات الدعوة في منهج الأنبياء عليهم السلام) أقدم بالنقاط التالية :

١- أن دعوة الأنبياء دعوة واحدة، من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ؛ كما يقول الرسول ﷺ: «**والأنبياء إخوة لعلاَّت أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(١)

٢- إن هذه الوحدة بين الأنبياء عليهم السلام لم تأت عبثا، بل هي وحدة تستدعي من الدعاة الاقتداء والتأسي بها فيما بينهم، درءاً للفرقة والخلاف، قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾(٢).

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ،جـ ٦ ص ٤٧٨ حديث رقم ٣٤٤٣ .

(٢)سورة الأنبياء ،الآية ٩٢.

٣- أن الخلط بين ما يجوز فيه الاجتهاد، ومالا يجوز فيه الاجتهاد في أولويات الدعوة، أدى إلى الخلاف والشقاق بين الدعاة، وهو ما نرى أثره في تفرق الأمة إلى أحزاب، وفرق، وانتماءات، وولاءات، سببها - في غالب الأحيان - الخلاف حول أولويات الدعوة إلى الله ﷻ.

٤- أن المنهج الذي تلتقي عليه الأمة، لتكون حقا (أمة واحدة) هو منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الذين كانوا يتلقون هذا المنهج بوحي من الله سبحانه، لا باجتهاد بشري . ولذلك أُمر محمد ﷺ بالاقتداء بهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾(١)، وقال عن محمد ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾(٢).

ولكي نقرر في هذا المبحث نتيجة دعوية، تكون ذات قبول من الجميع، فإننا لن نتجاوز نصوص القرآن الكريم التي روت لنا دعوة الأنبياء عليهم السلام ، وبعض الأحاديث الصحيحة الثابتة عن دعوته ﷺ. وبخاصة وأن القضية ذات أساس مكين في الدعوة، تمس أولوياتها وتنسب إلى الأنبياء عليهم السلام ، داعين الإخوة الدعاة في كل مكان، إلى هذه الأولويات؛ لتكون جزءاً رئيسا في منهج الدعوة، الذي لا يتأثر بالزمان ولا بالمكان .

مدخل :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا

(١) سورة الأنعام ،الآية ٩٠.

(٢) سورة النجم ،الآيتان ٣ ، ٤.

﴿لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فتحقيق العبودية لله سبحانه؛ هي الغاية من خلق الجن والإنس، وللدلالة على طريق هذه العبودية: بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2].

وجاء التركيز على هذه العبودية، لتحرير الإنسان من الارتباط بالشهوات،والأهواء،والآراء، التي تجر صاحبها إلى قيود العبودية البشرية، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

وإن الحرية الحقيقية هي في العبودية لله ﷻ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (الحرية: حرية القلب، والعبودية: عبودية القلب)[4]، ويقول: (إنما دين الحق: تحقيق العبودية لله، بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة، وبقدر تكميل العبودية؛ تكمل محبة العبد لربه ومحبة الرب لعبده، وبقدر نقص هذا، يكون نقص هذا)[5]

فالمهم هو: تحرير هذا القلب لربه، فلا يصرف أي شيء من العبادة لغير الله، وإذا استقام القلب استقامت الجوارح: «**ألا وإن في الجسد**

---

(١) سورة الذاريات ،الآية ٥٦.

(٢) سورة الأنبياء ،الآية ٢٥.

(٣) سورة الجاثية ،الآية ٢٣.

(٤) ابن تيميه ،فتاوى شيخ الإسلام ،جـ ١٠ ص ١٨٦.

(٥) ابن تيميه ، العبودية ،ص ٤١.

مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[١].

ولن تجتمع قلوب هذه الأمة إلا على التوحيد، وإذا اختل التوحيد فكل له معبود، وكل له هدف، وعندها تتعدد الأودية والشعاب، وكل سيسلك واديا يهلك فيه، إلا من عصم الله بالبقاء على التوحيد.

ولن تستقر النفوس إلا بالتوحيد: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٢]، ويقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فكل الذنوب وعد الله سبحانه وتعالى بمغفرتها، إلا الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٤].

يقول ابن قيم الجوزية، في (مدارج السالكين): (وكلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتم، فمن لقيه لا يشرك به شيئا البتّة؛ غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت، ولم يعذب بها)[٥].

ويقول أيضا رحمه الله تعالى في زاد المعاد: (ولما كان المشرك خبيث

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ،جـ ١ ص ١٢٦ حديث رقم ٥٢.

(٢) سورة الرعد ،من الآية ٢٨.

(٣) سورة الزمر ،الآية ٢٩.

(٤) سورة النساء ،الآية ٤٨.

(٥) عبد المنعم العزي ، تهذيب مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ،ص ١٨٦.

العنصر خبيث الذات؛ لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثاً كما كان ، كالكلب إذا دخل البحر، ثم خرج منه، فلذلك حرم الله تعالى على المشرك الجنة)[1].

هذا هو التوحيد؛ يجمع القلوب، ويحرر الإنسان في الدنيا ، وصاحبه لديه وعد من الله بالغفران، مهما كانت ذنوبه؛ متى نجا من تلويث الشرك وأدرانه.

لذلك لم يكن غريبا أن يكون للتوحيد مكانة خاصة، مميزة في منهج دعوة الأنبياء عليهم السلام، اتفقوا عليها في كل دعواتهم، رغم تباعد العصور والأمكنة، وهو ما سنوضحه في الفقرة التالية.

أولويات الدعوة في منهج الأنبياء عليهم السلام

لمعرفة أولويات الدعوة في منهج الأنبياء عليهم السلام؛ لا بد من الرجوع إلى تاريخ دعواتهم عليهم السلام، بماذا بدأ كل منهم، وبماذا ثنّى في قضاياه مع أمته التي بعث إليها، وأوثق مرجع وأصدقه هو القرآن الكريم، مع ما يبينه من السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

ولقد تحدث القرآن الكريم في مواضع منه، عن دعوات الأنبياء، منها ما جاء مجملاً، ومنها ماجاء مفصلاً، ولذلك سنتحدث في هذا الموضوع وفق الفقرتين التاليتين:

أولا : النصوص الإجمالية من القرآن الكريم، عن دعوة الأنبياء إلى

---

(١) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ،جـ ١ ص ٦٨.

الله ﷻ .

ثانيا : النصوص التفصيلية من القرآن الكريم، عن بعض الأنبياء في دعوتهم إلى الله ﷻ

أولاً : النصوص الإجمالية من القرآن الكريم:

١- يقول تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١)، أي :(ولقد بعثنا أيها الناس، في كل أمة سلفت قبلكم رسولاً، كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له بالطاعة، وأخلصوا له العبادة)(٢). و (ما من أمة متقدمة، أو متأخرة، إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له)(٣)، وهذا فيه تقرير منهج شامل، لجميع الأنبياء عليهم السلام، يسعهم ويسع الدعاة من بعدهم.

٢- يقول ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٤).

(فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة

---

(١) سورة النحل ،من الآية ٣٦.

(٢) الطبري ، جامع البيان في تأويل آي القرآن ،جـ ١٤ ص ١٠٣.

(٣) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،جـ ٢ ص ٥٩

(٤) سورة الأنبياء ،الآية ٢٥ .

ماسواه باطله)[1].

رُوي عن قتادة رحمه الله تعالى قال: (أُرْسِلت الرسل بالإخلاص والتوحيد، لا يقبل منهم عمل حتى يقولوه ويقروا به) [2]، فهو الخطوة الأولى، الذي لا يصح تجاوزه إلى غيره، ما دام لا يقبل منهم عمل؛ حتى يتم تقريره والإقرار به.

ثانيا : النصوص التفصيلية من القرآن الكريم عن دعوة بعض الأ نبياء:

يقول الله ﷻ عن دعوة نوح عليه السلام: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [3]، وقال ﷻ عن دعوة هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[4]، وقال تعالى عن دعوة صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[5]، وقال تعالى عن دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[6]، وقال

---

(١) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،جـ ٢ ص ٥٩.

(٢) انظر ، الطبري ، جامع البيان ،جـ ١٧ ص ١٥.

(٣) سورة الأعراف ،الآية ٥٩.

(٤) سورة الأعراف ،الآية ٦٥.

(٥) سورة الأعراف ،الآية ٧٣.

(٦) سورة العنكبوت، ،الآيتان ١٦ ، ١٧.

تعالى عن دعوة شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾(١)، وقال سبحانه وتعالى عن دعوة عيسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٢)، وقال عن دعوة محمد ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ﴾(٣)، عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ، التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ...﴾، إلى قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآيه(٤).

هذه دعوة الأنبياء، كل منهم يواجه قومه بالدعوة إلى التوحيد، فما بعث نبي إلاّ وبدأ مع قومه بهذه الدعوة(٥).

وعلم الرسول ﷺ هذا المنهج لأصحابه، فإنه لما بعث الرسول ﷺ معاذا إلى اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم أن الله قد فرض**

---

(١) سورة هود، الآية ٨٤.

(٢)سورة المائدة، الآية ٧٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٥١.

(٤) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٦٣.

(٥) انظر ، محمد أحمد العدوي ، دعوة الرسل ،ص١.

عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا الصلاة، فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم، وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس»[1]، يقول ابن حجر رحمه الله تعالى: (ووقعت البداءة بهما - أي بالشهادتين - لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما)[2].

من هذه الآيات والأحاديث التي استعرضت تاريخ دعوة الأنبياء عليهم السلام، نستطيع أن نقرر أن الأنبياء عليهم السلام، متواطئون على دعوة الناس إلى التوحيد أولاً، لا فرق بين رسول ورسول، وأن من كذب رسولاً من رسل الله فهو مكذب بالرسل أجمعين، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[3]، مع أنهم لم يواجهوا بهذا التكذيب إلا رسولاً واحداً، هو نبي الله نوح عليه السلام. ومثل هذا قيل لقوم هود: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[4]، وقوم صالح: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[5] وقوم لوط: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[6]، وأصحاب الأيكة: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[7]، مما يدل على وحدة

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ،جـ ٣ ص ٣٢٢ حديث رقم ١٤٥٨.

(٢) ابن حجر فتح الباري ،جـ ٣ ص ٣٥٨ .

(٣) سورة الشعراء ،الآية ١٠٥ .

(٤)سورة الشعراء ،الآية ١٢٢ .

(٥) سورة الشعراء ،الآية ١٤١ .

(٦) سورة الشعراء ،الآية ١٦٢ .

(٧) سورة الشعراء ،الآية ١٧٦ .

الدعوة، وترابطها ترابطا وثيقاً، يجعل المصدق بواحد من الأنبياء مصدق بالجميع، والمكذب لواحد منهم مكذباً بالجميع.

وعلى هذه الأصول اتفقت دعوتهم عليهم السلام، واجتمعت كلمتهم، لتؤكد أن القضية الأولى، في جميع الدعوات، من لدن أول الأنبياء إلى آخرهم، يجب أن تبدأ بالتوحيد، أيا كانت الظروف والأحوال التي يعيشها هذا المجتمع، مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة.

ثم إذا سرنا قليلا في دراسة دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، سنجد أنهم بعد هذه القضية - قضية تقرير العقيدة في النفوس - وعند الشروع في القضية الثانية، التي يدعون إليها، يختلف الأمر، فنجد أن لكل نبي قضية خاصة يركز عليها، فكل نبي يُعنى عناية خاصة بالأمراض التي توجد في مجتمعه وبين قومه.

فإبراهيم (أبو الأنبياء) عليه السلام اهتم كثيراً بالتوحيد، ومحاربة الشرك، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾(٣) ، وكأنه عليه السلام يرى ما وقع فيه بعض الناس من

(١) سورة الأنعام ،الآية ٧٤.

(٢) سورة الأنبياء ،الآيتان ٥١ ، ٥٢.

(٣) سورة الصافات ،الآيتان ٨٥ ، ٨٦.

الضلال؛ بسبب الشرك الذي صرفهم عن الحق، الذي أتى به الرسل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) . وإنه ليخيل لمن يقرأ قصص دعوة إبراهيم عليه السلام في القرآن، أنه عليه السلام لم يبعث إلا بالتوحيد؛ وذلك بسبب تفشي الوثنية في مجتمعه، فكان التوحيد هو قضية إبراهيم عليه السلام الأولى والثانية، في حين نرى أن لوطا عليه السلام مع اتحاد زمان بعثته، لكن اختلف المجتمع(٢)، فقد كان قوم لوط مجتمعا فشت فيه الفاحشة، واعتادوها، حتى أصبح التنزه عنها جرماً يستحق صاحبه الإخراج والطرد، قال تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾(٣)، ولذلك نجد لوطا عليه السلام يركز بعد الدعوة إلى التوحيد على التحذير من هذه الفاحشة، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾(٤)،وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ

---

(١) سورة إبراهيم ،الآيتان ٣٥ ، ٣٦.

(٢) انظر ، ابن كثير (البداية والنهاية) ،ج١ص١٥٢، وقال عن لوط عليه السلام: (فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشرارا كفارا فجارا)

(٣) سورة الشعراء ،الآيات ١٦٥ - ١٦٧.

(٤) سورة الأعراف ،الآيتان ٨٠ ، ٨١.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾[1]، وهذا التركيز على هذه القضية، من قبل لوط عليه السلام لا نجد له ما يماثله من قبل الأنبياء الآخرين، مما يعني أن التركيز كان سببه البيئة، وانتشار الفاحشة فيها، وليس لنوعية الفاحشة فقط.

ونجد أنّ نبيّ الله شعيباً عليه السلام يدعو قومه بعد التوحيد إلى أن يوفوا الكيل والميزان؛ وذلك لأن الغش في الكيل والوزن منتشر شائع في قومه، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[3].

وموسى عليه السلام بعث في قوم قد تسلط عليهم فرعون، وسامهم سوء العذاب؛ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فاهتم عليه السلام - بعد التوحيد الذي أشرنا إلى أدلته في البداية - بإنقاذ بني إسرائيل من الذل الذي نشأوا عليه، وإحباط ظلم وطغيان فرعون، وتربية العزة والكرامة في نفوس القوم،

(١) سورة العنكبوت ،الآيتان ٢٨ ، ٢٩.

(٢) سورة الأعراف ،الآية ٨٥.

(٣) سورة هود ،الآية ٨٤.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾(١) وكما خاطب موسى قومه بهذه القضيةفقد واجه بها فرعون، قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾(٢).

وعلى هذا فالقضية الثانية في الدعوة تختلف اختلافا كاملاً عن القضية الأولى؛ القضية الأولى محسومة منتهية، لا مجال فيها لاجتهاد بشر، ولا تتأثر بالبيئة، ولا تختلف باختلاف الزمان أو المكان، فلا بد من التوحيد؛ لأنه أساس كل دعوة، ومنطلق كل داعية.

أما القضية الثانية فهي بخلاف ذلك، إذ هي تتأثر بالبيئة وبالزمان والمكان، وكل نبي - كما رأينا - له قضية خاصة؛ نشأت من حاجة مجتمعه، فالمجتمع الوثني المنغمس في الوثنية، تستمر معه قضية التوحيد؛ تأثرا بحاجة المجتمع إلى الاستمرار في هذا الأمر، والمجتمع الذي تتفشى فيه الأخلاق السيئة، يكون مواجهة هذا الأمر هو القضية الثانية وهكذا. ولم يؤثر هذا الاختلاف في وحدة الأنبياء، ولم يكن مصدر نزاع أو مشاقة، بل هو مما يؤكد اتجاه غايتهم جميعا نحو أسلم طريق للإصلاح وتحقيق الهدف

(١) سورة المائدة ،الآيتان ٢٠ ، ٢١.

(٢) سورة طه ،الآية ٤٧.

المشترك ، وأهم أمر يُصْلَح هو إصلاح علاقة العبد بربه، ثم بعد ذلك يصلح ما فسد من أمر المجتمع كل بحسبه.

ويهمنا من هذا أن نقرر أن الداعية إلى الله ﷻ يبدأ دائماً - وفي كل الأحوال - بإصلاح العقيدة، ثم يصرف همه إلى معالجة الأمراض الموجودة في المجتمع الذي يدعو فيه[1] ، وإذا كان هناك أمراض متفاوتة بدأ بأشدها فتكا وأعمقها ضرراً على المجتمع.

وما دامت دعوة الأنبياء عليهم السلام بهذا المنهج الواضح، وهم القدوة والأسوة لكل داعية، فلا يسع أحداً الخروج عن هذا المنهج، أو تقديم بعض أولوياته المقررة على بعض، وذلك بإصلاح العقيدة أولاً وهي الأساس .

أما القضية الثانية فالدعاة لهم فيها متسع من الاجتهاد، إذ لكل مجتمع مشكلاته وقضاياه التي قد تختلف عن غيره، وبالتالي يتسع الصدر بين الدعاة في هذا الجانب، فالمجتهد في تقدير القضية الثانية مأجور - إن شاء الله تعالى - فإن أصاب الحق فله أجر آخر على الإصابة ، وإن كانت الأخرى فلن يعدم من يعذره؛ لكون المجال سائغا فيه الاجتهاد ، وليس لأحد حق اللوم والتثريب أو المشاقة والمنازعة والفرقة.

وبهذا تلتقي آراء الدعاة إلى الله ﷻ، وتتآلف القلوب، وينتفي الخلاف ، ويحل التعاضد والتآزر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) انظر محمد العدوي (دعوة الرسل إلى الله) صفحة (ل) في المقدمة .